الفصل الثاني:

مواقف عمرانية فـي القرآن الكريم

الموقف الأول: نبي الله تعالى نوح عليه السلام:

ظل نبي الله نوح عليه السلام يدعو إلى الله تعالى في قومه، تسعمائة وخمسين عامًا، وتكبد في سبيل هذه الدعوة كثيرًا من المعاناة، وكان يبذل جهودًا متناهيةً في سبيل إنقاذ قومه من الضياع في الدنيا والآخرة، ولكن هذه الجهود لم تؤت ثمرتها المرجوة بسبب عناد قومه، وإصرارهم على الكفر، وعند ذلك صدر قرار العزة من العزيز العليم سبحانه وتعالى بتدمير هؤلاء القوم، وذلك بإغراقهم في الطوفان وأخبر بذلك نبيه ورسوله نوحًا – عليه السلام – قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ هود: ٣٦.

هذا عن الإخبار بموقف القوم من الإيمان بدعوته وأن القوم قد انتهوا إلى حالة التمسك بالكفر، وأصبح من غير الجائز الاستمرار في دعوتهم.

وعن الإخبار بالطوفان قال تعالى:﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ هود: ٣٧.

هذه الآية تطرح سؤالًا خالدًا: ما هو سبيل النجاة للمؤمنين في الدنيا والآخرة؟

أيكون بالعمل الدنيوي اليدوي ثم الآلي بعد ذلك؟ أم يكون عن طريق التحنث بالعبادة غير المفروضة وترك العمل الدنيوي، وترك المشكلة كلها لله يحلها وتصبح بعد ذلك خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض خلافةً معكوسةً، فالله تعالى استخلف الإنسان في الأرض لعمارتها، وحل مشكلاتها.

لو كانت نجاة المؤمنين في الدنيا تقف عند حد الدعوة لله تعالى وعبادته حق العبادة لكان أولى بهذه النجاة نوح – عليه السلام – فقد دعا إلى الله تعالى فترةً طويلةً: تسعمائة وخمسين عامًا قبل الطوفان، وفترةً أخرى بعده، ومن ناحية العبادة فقد كان

رسولًا نبيًّا، ومع هذا لم تغن دعوته وعبادته عن ممارسته لواجب خلافته، وعمله بيده لكي ينجو هو ومن معه من المؤمنين.

ولم يكن عمله في بناء السفينة مثل أعمال السحرة كأن يشير إلى الخشب فيتحول إلى سفينة، ولم يكن عن طريق بعض الأوهام التي تعشش في أفئدة بعض المسلمين في عصور الانحطاط، إنما كان بناء السفينة بالجهد والعرق، فكان يقطع الأخشاب ويجففها ثم يجهزها، ثم يقوم بتنظيمها وترتيبها ورقمها، ثم يقوم بوضع كل قطعة خشب في مكانها الصحيح.

وقد اتفق المفسرون على أمرين في هذه القصة:

الأمر الأول: طول فترة صناعة السفينة.

الأمر الثاني: كبر حجم وضخامة هذه السفينة.

حتى قال بعضهم: استغرق نوح في عمل السفينة سبع سنين كاملة، وقال بعضهم أكثر من ذلك.

وعن حجم السفينة قال بعضهم: إنها وصلت طولًا إلى ألف وثلاثمائة ذراع. المهم أنهم أجمعوا على طول المدة وكبر حجم السفينة، وعمل ضخم بهذا الشكل يقوم به رجل واحد دليل على أنه لم يذق طعمًا للراحة، وهنا تظهر قيمة أن يصل الإنسان لنجاته بيده، وليس معنى هذا أن الإنسان سوف يستغني بعمله عن ربه سبحانه وتعالى، بل لا بد من توفيق العليم القدير، ولكنه لا يوفق القاعدين المهملين.

وكان من الممكن أن يسلم أن يسلم نوح أمره إلى الله تعالى ويمتنع عن عمل السفينة ويعصي ربه في جانب الخلافة لأنه يتقن طاعته في جانب العبادة، ولكن النتيجة ستكون هلاكه لا محالة، وهذا فرض جدلي لأن الأنبياء لا يعصون ربهم أبدًا، وعملهم الدنيوي جانب من طاعتهم لربهم سبحانه وتعالى.

وقد انشغل السادة المفسرون على اختلاف مشاربهم في هذه القصة بأمرين:

الأمر الأول:

أثر غريب لا صحة له في الصحاح ولا في التوارة ولا الإنجيل، وهو أن عيسى بن مريم – عليه السلام – سأله قومه عن قصة سفينة نوح، فأخذ حفنةً من التراب، وقال: هذه من تراب أحد راكبي السفينة مع نوح، وقال له قم بإذن الله تعالى فقام وحكى عن أوصاف

السفينة، ثم تحول إلى تراب مرة أخرى.

الأمر الثاني:

أثر غريب أيضًا يتحدث عن الحيوانات التي كانت في السفينة وروثها المتجمع في قاع السفينة وكيف أن سيدنا نوح – عليه السلام – ضغط على أنف الفيل فأخرج من إسته خنزيرتين، وكيف أن هذه الخنازير تكاثرت وأكلت روث الحيوانات.

ومن الغريب أن علماءنا الأجلاء من المفسرين أعرض أكثرهم عن العبرة العظيمة من القصة، وهي أن الإنسان مهما كانت منزلته في الدعوة والإيمان بالله تعالى لا بد أن يحل مشكلته بيده وأن يمارس خلافته على الأرض كما أراد الله سبحانه وتعالى.

الموقف الثاني: مريم عليها السلام:

يقول الله تعالى في سورة آل عمران (٣٥–٣٧): ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

ويقول الله تعالى في سورة مريم (١٦–٢٥): ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾.

السيدة مريم العذراء نذرتها أمها لخدمة المحراب لأنها كانت لا تنجب، وتمنت أنها لو أنجبت فسوف تجعل المولود خادمًا للمحراب (وهو مكان مثل المسجد) وبرغم أنها أنجبت

بنتًا إلا أنها أنجبت بنتًا إلا أنها أوفت بنذرها، وأرسلت البنت الصغيرة للمحراب للعمل في خدمة رواده، ولعبادة الحق سبحانه وتعالى، ونشأت مريم نشأةً طيبةً في هذا الجو الروحي الذي يكفله لها وجودها في المحراب.

وعندما كبرت جعلتها القرعة تدخل في كفالة نبي الله تعالى زكريا – عليه السلام– وكان يزورها في المحراب لتقديم الطعام والمساعدة لها في خلوتها، فكان يجد عندها طعامًا مختلف الأنواع والأوقات، فكان يجد فاكهة الصيف في الشتاء مثلًا، وكان يسأل الفتاة كيف حصلت على هذا؟ فكانت تجيب بأن هذا الطعام من عند الله تعالى، لأنه يرزق من يشاء بغير حساب وبغير أسباب.

هكذا كان حال مريم العذراء: تعمل في خدمة بيت الله، والله تعالى يتكفل برزقها، إذًا؛ هو رزق مقابل العمل في المحراب! وعندما خرجت مريم من المحراب وأرسل الله لها الملك ليخبرها بأن الله تعالى سيرزقها الولد من غير أن يمسها رجل، وعندما تعجبت من حدوث ذلك، أخبرها الملك أن الله يقدر على كل شيء، وقد خلق آدم قبل ذلك من تراب، من غير أم ولا أب، وعندما يخلق عيسى من غير أب فإن ذلك يكون يسيرًا عن خلق آدم عليه السلام.

وحملت مريم بعيسى عليه السلام، وكثرت الأقوال حول حملها، مما جعلها تعتزل أهل قريتها، وتخرج إلى مكان بعيد عن القرية، وجاءها المخاض، وهو الآلام التي تشعر بها المرأة عند الولادة، وشعرت بقدر كبير من الندم، وبقدر هائل من المسؤولية أمام الناس عن شيء يصعب فهمه، ويتعذر تحمله عند أكثر الناس.

في هذا الجو المشحون بالآلام والندم وضعت السيدة مريم طفلها المسيح عيسى بن مريم، وبعد الوضع شعرت بآلام الجوع وقسوة الحاجة إلى الطعام، واتجهت إلى ربها تطلب منه الطعام، وكان المتوقع أن ينزل عليها الطعام كما كان يأتيها قبل ذلك ولكن هيهات، فقد كان الطعام ينزل لها وهي في المحراب لأنها كانت موقوفةً على خدمة بيت الله – تعالى.

أما الآن وقد خرجا إلى الحياة، والحياة لا طعام فيها من غير عمل فقد كان على مريم في ظروفها القاسية أن تعمل لكي تأكل، ولذلك جاءها صوت من أسفل المكان الذي كانت تضع مولودها عليه يأمرها بأن تهز جذع النخلة حتى تسقط عليها الرطب فتأكل من عمل يدها، فهزت مريم النخلة فتساقط الرطب، وأكلت وشبعت وأرضعت ابنها، ولكنها تركت لنا

أسئلة كثيرةً تحتاج إلى إجابة.

أولها: ما قيمة العمل الإنساني؟ هو جوهر وجود الإنسان وأساس وجوده في الحياة، بدليل أن الله سبحانه وتعالى مع عطفه على مريم العذراء واختياره لها لميلاد هذه المعجزة إلا أن كل ذلك لم يشفع لها عنده أن تأكل من غير عمل، وحينما كانت في المحراب للعبادة فقط رزقها كما رزق آدم وحواء في الجنة، ولما خرجت إلى الحياة العامة، إلى مكان الخلافة استحال رزقها من غير عمل، لأن العمل المنتج يساوي الإنسان، وإنسان بلا عمل لا يمثل سوى كتلة تشغل حيزًا من الفراغ.

الموقف الثالث: نبي الله تعالى داود عليه السلام:

قال تعالى في سورة البقرة (٢٥٠، ٢٥١): ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

ويقول الله تعالى في سورة ص (١٧–٢٦): ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

ويقول الله تعالى في سورة الأنبياء (٧٨–٨٠): ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا

ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾.

نشأ نبي الله داود – عليه السلام – في أسرة فقيرة، ولما اشتد عوده عمل راعيًا للغنم ليطعم نفسه وأسرته، وكان يحب العمل اليدوي بشتى أنواعه، وكان يدرب نفسه على الرياضات التي تمكنه من القتال، وصناعة أدوات الحرب، وهو في كل ذلك راع للغنم؛ أي كان يعمل بنظام الوقت الإضافي، أو قل إنه كان لا يترك وقتًا يمر في حياته إلا ويشغله بالعمل النافع، وكذلك فعل كل الأنبياء، لأنهم كانوا يعتبرون الفراغ عطاءً إضافيًّا من الله سبحانه وتعالى لكي يتمكنوا من إنجاز كثير من الأعمال المفيدة في هذا الفراغ.

وفي يوم من الأيام وداود يرعى غنمه تصادف مروره على قتال نشأ بين قومه – بني إسرائيل – بقيادة طالوت – عليه السلام – وبين أعدائهم بقيادة جالوت، وراقب داود المعركة ولكنها لم تنته لصالح قومه بسبب قوة البطل جالوت، ووجد أن الذين يحاربون جالوت ينقصهم المران على الحرب والتدريب لاكتساب الملكات الجسمانية، وأدرك أنه يستطيع أن يهزم جالوت لو أُتيح له أن ينازله ويصارعه، فاستأذن من القائد طالوت، فأذن له، ونزل إلى أرض المعركة، ولكن جالوت أهمله وظن أنه نزل ليعبث، ولم ينظر له كمحارب متدرب بسبب هيئته الفقيرة.

ولكن داود طلب منه أن ينازله وأن يتصارعا أمام الناس فأذعن جالوت بعد جدال لطلبه ونزل إليه، وبدأ التلاحم بينهما، ومن أن أول وهلة أدرك جالوت أنه يصارع بطلًا مدربًا تدريبًا جيدًا، وما هي إلا لحظات حتى انقض داود على جالوت فصرعه وقضى عليه، وانتهت المعركة بعد ذلك لصالح بني إسرائيل، وكان النصر حليفهم.

وبعد شهور قليلة تُوِّج داود ملكًا على بني إسرائيل، فأقام مملكةً قويةً برجالها، غنيةً بمواردها، ولكنه لم يغفل وهو ملك عن حبه الخالد للصناعة، فأعانه الله تعالى على كثير من الصناعات الحربية والمدنية، ولكنه بعد أن استقرت أمور الدولة وكثرت خيراتها وقويت شوكتها زاد شوقه لربه سبحانه وتعالى، فانشغل بذكر الله تعالى عن صناعاته وعن القضاء بين الناس.

ولكن ترك خلافة الله تعالى في الأرض – الزراعة والصناعة –والقعود للعبادة من الأمور التي يعاتب عليها الحق سبحانه وتعالى أحباءه، ولذلك أرسل الله تعالى ملكين إلى داود دخلا عليه المحراب وأبوابه مغلقة، وعرضا عليه قضيةً بينهما. فسأل داود أحدهما ولم يسأل الآخر، لأنه كان في عجلة من أمره ويريد أن يتخلص منهما ويعود إلى ذكره وعبادته.

ولكنهما نبهاه إلى أن تلك الطريقة لا تحقق العدل وأن رعاية أمور الناس والتمكين للأمة في الأمور التي ترضي الله سبحانه وتعالى، وعند ذلك استغفر داود ربه سبحانه وتعالى وعاد إلى صناعاته وقضائه بين الناس. ولكنه لم يلبث أن عاد بعد فترة يغلبه شوقه لذكر ربه سبحانه وتعالى؛ فعاد إلى المحراب ليعتكف فيه.

وهنا أراد سبحانه وتعالى أن يأخذ الملك منه، ويعطيه لابنه سليمان عليه السلام لأن الدنيا لا يملكها إلا من يتعامل معها ويسيطر عليها، أما من يتركها ولا يؤدي دوره فيها كاملًا فإنها تُسْلَب منه وتُنْقَل إلى غيره.

وبعد عدة أيام من اعتكاف داود عليه السلام في المحراب خرج للقضاء بين الناس، فدخل عليه جماعة يتشاجرون ويتصايحون ويتنازعون، وحينما أوقفهم داود بين يديه وسألهم عن نزاعهم قال كبير جماعة منهم: لقد اجتاحت غنم هؤلاء حديقتنا فأهلكتها ودمرتها.

وأراد داود عليه السلام أن يحكم بين الناس بسرعة حتى يعود إلى محرابه وذكره، فقال يا صاحب الحديقة خذ من الغنم ما يعوضك عن خسارتك في حديقتك.

وجاء التجار وقوموا الغنم والحديقة، فوجدوا أن من حق أصحاب الحديقة أن يأخذوا كل غنم القوم وليس بعضها، فأمر داود بنقل الغنم إلى ملكية أصحاب الحديقة.

وخرج أصحاب الغنم في ذعر وهلع، وهم يدركون أنهم تحولوا بهذا الحكم من جماعة منتجة إلى جماعة عاطلة ليس لها عمل، وأدركوا بفطرتهم أن الله تعالى يحب العمل والعاملين، فصرخوا، وسمعهم نبي الله سليمان وكان صغيرًا وقتها، فسألهم، فقصوا عليه ما حدث لهم، ففكر لحظةً ثم قال لهم:

أدخلوا على أبي مرةً أخرى وقولوا: يا نبي الله تعالى؛ إننا نرضى حكم ابنك سليمان في قضيتنا، فابتسم داود – عليه السلام – واستدعى سليمان وأجلسه على كرسي الملك، وقال له: احكم بين هؤلاء الناس، فاستمع سليمان إلى دفاع الطرفين، ثم فكر طويلًا وأصدر حكمه كالآتي:

قال: يا صاحب الحديقة خذ الغنم فارعها وتعهدها، ولك أن تأكل من نتاجها وتشرب من ألبانها وتبيع أصوافها، وتسلمها لنا في العام القادم مثل هذا اليوم من غير نقص، ويا صاحب الغنم خذ الحديقة فابذل جهدك فيها أنت وأهلك وتعهدوها ولكم أن تأكلوا من نباتها وزرعها وثمرها إذا أثمرت وتسلموها لنا سليمةً يانعةً في العام القادم مثل اليوم.

وخرج الطرفان مرضيين بهذا الحكم، وفي هذه اللحظة تنازل داود لابنه سليمان عن حكم بني إسرائيل وعن المملكة التي بناها وشيدها بعرقه وجهده، وعاد لمحرابه حيث يجد متسعًا للعبادة ولمناجاة ربه سبحانه وتعالى.

في قصة داود – عليه السلام – كثير من الدروس التي تنفع أجيال الأمة الإسلامية الحاضرة والقادمة بإذن الله تبارك وتعالى:

(أ) إن داود – عليه السلام – بنى مملكته بعرقه وجهده وكفاحه، ولكنه لما اتجه إلى الإكثار من العبادة التي لم تفرض حركةً لما يجب وأخذ منه الملك ونقله إلى ابنه سليمان – عليه السلام.

(ب) إن علامات انشغال داود – عليه السلام – بالعبادة والمناجاة كانت ظاهرةً في إجابته على الخصمين اللذين دخلا عليه المحراب.

(ج) إن الله تعالى أيد حكم سليمان وأخبرنا في القرآن الكريم أنه أفهمه الحكم الصحيح، وهذا يدل على رعاية الحق – سبحانه وتعالى – لكل نظام يعمل على تطوير الحياة وازدهارها.

(هـ) إن نبي الله تعالى داود لم يشفع له ذكره ومناجاته واعتكافه للعبادة في ترك أمور الدنيا؛ مما أدى إلى أخذ الملك منه.

ولعل هذه القصة تذكرنا بما حدث من المسلمين بعد احتلال اليهود لفلسطين؛ فقد ظل الخطباء على المنابر فيما يزيد على مليون منبر في العالم الإسلامي يدعون على اليهود، ويطالبون من الله تعالى أن يدمرهم. حدث ذلك من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٦٧.

وكانت إجابة الله تعالى لهؤلاء الكسالى النيام عن الخلافة إجابةً قاتلةً، فقد قام اليهود في صباح ١٩٦٧/٦/٥ باحتلال كل أرض فلسطين، وضعفيها من مصر ومثلها من سوريا ومثلها من لبنان، وشعر العالم الإسلامي كله بخزي وعار لا نظير لهما، وأدرك القادة

العسكريون في مصر وسوريا أن إسرائيل لن تُهْزَم بالدعاء عليها، ولكنها ستُهْزَم بالعمل الشاق والتدريب القاسي والتخطيط الجيد، وقبل ذلك وبعد ذلك توفيق الحق – سبحانه وتعالى – لأنه لا يوفق إلا العاملين، ولا يضيع أجر من أحسن عملًا.

بهذا الجهد الخارق والعزيمة الصادقة والعمل الدؤوب، كتب الله تعالى النصر للجند الذين انهزموا قبل ذلك حين اعتقدوا أن دورهم لا قيمة له وأن الجن من الممكن أن تتولى بدلًا منهم القتال، وحين جاء النصر الكريم في العاشر من رمضان ١٩٧٣/١٠/٦ كان ذلك إيذانًا بتوفيق الله - سبحانه وتعالى – لأن الذين عبروا القناة بالسلاح الجيد والتدريب الشاق، والتخطيط المحكم عبروها أيضًا وهم يهتفون في نفس واحد: الله أكبر.. الله أكبر.. فالله أكبر من التدريب والتخطيط والسلاح والعدد، ولكنه لا ينصر إلا من يعمل ويتقن ويستحق النصر.

الموقف الرابع: نبي الله تعالى سليمان عليه السلام:

قال الله تعالى في سورة النمل (١٦–٤٤): ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟

أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ
إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ
وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ
إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى
بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ
لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا
عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى
غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَنَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا
عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن
قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن
قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ۞.

وقال تعالى في سورة سبأ (١٢–١٤): ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ
وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ
عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ
ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ
إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى
ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ۞.

بعد أن أسند أمر قيادة الدولة اليهودية إلى نبي الله تعالى سليمان – عليه السلام – شرع في استكمال بناء الحضارة العظيمة التي بدأها والده – نبي الله تعالى داود عليه السلام – لتحقيق خلافة الله تعالى في الأرض.

وكان نبي الله تعالى سليمان – عليه السلام – رجلًا طموحًا لدرجة كبيرة، وكانت كل الأشياء حوله لا تحقق طموحه في بناء مملكة أرضية يرضى عنها ربه سبحانه وتعالى،

ولذلك طلب من الله تعالى ملكًا لا يصل إليه أحد من بعده، وأجابه الله – تعالى – إلى ذلك، وأعطاه ملكًا لم يصل إليه أي إنسان في تاريخ البشرية.

ولكن مظاهر هذا الملك لم تكن للتسلية ولا للترفيه كما يظن بعض الناس، فعناصر هذا الملك كانت كلها تدور حول تحقيق خلافة الله تعالى في الأرض.

ولما كانت المكتشفات العلمية لم تصل إلى درجة كافية لتحقيق طموح نبي الله تعالى سليمان – عليه السلام – في بناء الدولة سخر له الله تعالى بعض عناصر الكون، وجعلها في خدمته وطوع أمره.

الناس:

فالناس في دولة سليمان – عليه السلام – كانوا يعملون بكل ما أوتوا من قوة لبناء الدولة، وكان هو المثل الأعلى في الجد والعمل حتى آخر لحظة في حياته.

الحيوانات:

كانت الحيوانات تعمل مُسَخرةً لخدمة أهداف الدولة في العمل والبناء.

الطير:

كانت الطيور أيضًا مُسَخرةً لخدمة هذه الدولة، ويخبرنا القرآن الكريم عن كل ذلك، وأن نبي الله تعالى سليمان كان يستعرض عناصر القوة التي تبني الدولة القوية ويمر عليها جميعًا من إنسان وحيوان وطير وجن.

وفي يوم من الأيام اكتشف في ذلك العرض غياب الهدهد؛ وهو طير خفيف الظل جميل المنظر، فسأل عنه فلم يخبره أحد بمكانه، فتوعد الهدهد بالعذاب، إذ كان غيابه هذا من غير سبب وجيه، وبعد أيام جاء الهدهد وذهب إلى سليمان – عليه السلام – وقص عليه سبب غيابه، وأنه كان في مهمة تخدم أهداف الدولة العليا في نشر التوحيد في كل مكان يمكن الوصول إليه، وأخبره أنه كان بأرض اليمن وشاهد قومًا يسجدون للشمس ولا يسجدون – لله تعالى الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر، وأنهم يعيشون تحت حكم امرأة تملكهم وتحكمهم.

ففرح سليمان بهذه الأخبار، وسُرَّ من حرص الهدهد على العمل، وأن غيابه عن العرض لم يكن كسلًا ولا لعبًا ولا لهوًا، وأرسل معه رسالةً إلى القوم، ثم بعد ذلك حمل أعوان سليمان

– عليه السلام – عرش الملكة – بما وصلوا إليه من علم.

وجاءت الملكة لمقابلة سليمان فوجدت أن عرشها قد سبقها إلى سليمان عليه السلام، ثم بعد ذلك طاف بها في بعض أرجاء المملكة لتشاهد ملكًا عظيمًا، وقومًا في غاية التقدم والازدهار، ولكن لفت نظرها أنهم مع قوتهم وتقدمهم لا يغترون بذلك، ويخضعون جميعًا لله الواحد القهار، عند ذلك أعلنت إسلامها واعتذرت لربها – سبحانه وتعالى – عن فترة كفرها السابقة، وانضمت مملكة سبأ إلى ملك سليمان – عليه السلام – ليقيم فيها العدل والتوحيد ولينشر فيها البناء والتقدم.

الجن:

الجن من القوى الخفية التي لا تظهر للإنسان إلا إذا تمثلت له، وهي تستطيع ذلك، وقد سخرها الله تعالى لنبي الله سليمان – عليه السلام – ليستخدمها فيما يعجز عنه البشر، وفيما يخفى عليهم، فلم يكن الاستشعار عن بعد قد اكْتُشِف في وقتها لبيان ما تحت الأرض.

وفي داخل الجبال، فكانت الجن تقوم بمثل هذه المهمة، ثم وقع عليهم العبء الأكبر في بناء الدولة؛ فكانوا يقومون بعمل المحاريب، والتماثيل والجفان الكبيرة، والقدور الضخمة، وقد ذهب المفسرون في تفسير هذه الأشياء إلى أنها كانت ما تحتاجه الحياة في وقتها، لإظهار الرفاهية وعزة الملك.

وعلى وجه الخصوص فسروا التماثيل بأنها نفس التماثيل التي نراها في القصور وفي المعابد، تماثيل للإنسان والحيوان والطيور، وقالوا إن كل ذلك لم يكن محرمًا قبل الإسلام.

ونقول: إن هذا الكلام ليس صحيحًا، من عدة وجوه:

الوجه الأول:

إن التماثيل بمعناها الحقيقي غير مرغوبة في كل الأديان، وتكون محرمةً إذا خيف أن يشركها الإنسان بالله تعالى في العبادة، وقد قام نبي الله تعالى إبراهيم بتكسيرها وجعلها جُذاذًا.

الوجه الثاني:

إن مهمة الجن مع نبي الله تعالى سليمان كانت لبناء الحضارة ونشر العمران، فإذا ذُكِرت المحاريب والتماثيل والجفان، والقدور في سورة سبأ، فقد قال الله تعالى في نهاية

الآية: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾؛ أي اجعلوا العمل الجاد الذي يبني الحضارة هو شكر الله تعالى على هذه النعم العظيمة.

وهو بذلك يوضح أن المحاريب والتماثيل والجفان والقدور كلها أشياء عملية لتحقيق السعادة للبشر في الدنيا، وتمكينهم من السيطرة على حياتهم.

الوجه الثالث:

إن التماثيل ليس المقصود بها التماثيل المعروفة عند كثير من السادة المفسرين، ولكنها تعني بلغة القرآن الشيء الذي لم يكن موجودًا، ثم تمثل شخصًا أمام العين، والله تعالى يقول: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾؛ أي أصبح موجودًا معها في نفس المكان تراه وتسمعه، فالتمثل يشمل وجود الأشياء ظاهرةً بعد خفائها أو انتقال فكرة معينة من الحيز النظري إلى الحيز العملي الذي يتمثل ويتجسم للناس، ويمكن إدخال كل الإنشاءات والمخترعات تحت هذا التمثل – الشخوص.

والذي يؤكد أن مهمة الجن لم تكن صناعة التماثيل بمعناها المألوف هو قول الله تعالى في صورة ص: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾؛ فقد حصر الحق سبحانه وتعالى مهمة الجن مع نبي الله سليمان – عليه السلام – في بناء الحضارة بصورة واضحة، فهم يعملون في البناء فوق الأرض، وفي الغوص تحت الأرض للبحث عن كنوزها ومعادنها، وكل ذلك لتطوير الحياة.

ولم يكن سليمان– عليه السلام– من عشاق التحف ومن هواة اللهو والعبث، فقد مات– عليه السلام– وهو يتابع عمل الجن في مشروع مهم، ولو علم الجن بموته لفشل هذا المشروع وهرب الجميع، ولذلك بقي ميتًا مستندًا على عصاه حتى انتهى العمل.

وعند ذلك جاءت دابة الأرض لتأكل العصا فيقع سليمان– عليه السلام– على الأرض وتخرج الأعداد الهائلة من الجن لتكشف أن سليمان مات من مدة طويلة وأنهم عملوا كثيرًا جدًّا وهم يظنون أنه حي يتابعهم في عملهم، هذه الحادثة تلخص حياة سليمان – عليه السلام – فهي كانت حياةً مقصورةً على العمل لتطوير حياة الإنسان وبناء حضارته، وخلافة الله تعالى في الأرض، وكل ما طلبه سليمان – عليه السلام – من ملك كان الغرض منه إثراء الحياة وجعلها سهلةً ميسرةً لكل البشر.

وكل هذه المنجزات الحضارية التي أقامها سليمان – عليه السلام – لم تكن خاليةً من

العقيدة والعبادة، بل تم كل ذلك لبناء العقيدة وترسيخ العبادة.

الريح:

وسخر الله سبحانه وتعالى الريح لنبيه سليمان – عليه السلام – ليستخدمها في عمارة الأرض، وتيسير أمور الحياة للناس، وبناء حضارة كبيرة تحقق طموحه في أن يفعل شيئًا في الدنيا يرضى عنه الله سبحانه وتعالى يوم القيامة.

وكانت المواصلات وقتها عبارةً عن الإبل والخيل والبغال والحمير، والمراكب والسفن الشراعية التي تسير في الماء بقوة الرياح، ولذلك استخدم سليمان– عليه السلام– الرياح في دفع هذه المراكب والسفن لتحقق سرعةً أكبر، والله تعالى يبين لنا– من استخدام سليمان للرياح مسخرةً بإذن الله– سبحانه وتعالى– أن السرعة في المواصلات وإنجاز الأعمال الدنيوية جزء من بناء الحضارة وإقامة الخلافة، وتقدم العمران، واستغلال الوقت استغلالًا جيدًا هو منهاج كل المرسلين والأنبياء والعاملين على إعمار الأرض وتحقيق الخلافة فيها لله تعالى، وسنرى أن الغفلة عن عنصر الوقت في الحياة غفلة عن الإيمان بالله تعالى، وشمولية هذا الإيمان لكل شيء في الحياة.

الموقف الخامس: نبي الله تعالى يوسف عليه السلام:

يقول الله تعالى في سورة يوسف (٤٣–٥٦): ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ
يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن
كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا
مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ
يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ
يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ
مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن
نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ
عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ

﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾.

خرج نبي الله يوسف – عليه السلام – من الجب ليجد نفسه يُبَاع في أسواق مصر بثمن بخس، ولا أحد يشتريه، ويبقى كذلك حتى جاء وزير كبير من وزراء مصر واشتراه وأوصى به زوجته خيرًا.

تمضي حياة يوسف- عليه السلام- هادئةً بعض الوقت لا ينغصها إلا فراق الأهل والوطن، ولكنه يرضى بما أُتيح له من الحياة، ويحاول عن طريق الإخلاص في العمل وبذل الجهد في بيت الوزير، وفيما يُكلف به من عمل أن يحقق ذاته، ولكن سرعان ما تتعلق به زوجة العزيز وتحبه حبًّا جمًّا، وتراوده عن نفسه.

ولكنه يرفض بشدة ويهرب من المكان، وعلى باب القصر يجد العزيز أمامه، والمرأة خلفه وهي تبكي وتدعي بأن يوسف– عليه السلام– قد حاول الاعتداء عليها، ويلجأ العزيز إلى قريب له ولزوجته يُعْرَف بالحكمة، فيعاين ملابس يوسف– عليه السلام– الممزقة، ثم يستقر ضميره على براءته بسبب وجود تهتكات في قميصه من الخلف.

وهذا يدل على أنه كان يجري من المرأة، وهي تجذبه إليها، ومن هنا قضى هذا الرجل ببراءة يوسف– عليه السلام– وإدانة المرأة، وتُركه في قصر العزيز فترةً بعد ذلك، ولكن امرأة العزيز جمعت له النساء اللاتي يتهمنها بالضعف أمام جماله وأعطت كل واحدة منهن سكينًا وشيئًا من الفاكهة، وأمرت يوسف أن يمر من أمامهن فذُهِلن وقطعن أيديهن، وواسين امرأة العزيز وعذرنها فيما فعلت بسبب قوة جماله.

ولكن العزيز ومستشاريه قد أدركوا بعد هذه الحادثة أن وجوده في القصر سوف يسبب لهم كثيرًا من المشاكل، فأمر العزيز بوضعه في السجن مع المسجونين من المخالفين والمجرمين على سواء، ولكن حب العمل عنده ومساعدته لكل إنسان يعيش معه جعله يحصل على عطف وتقدير كل المسجونين، لأنه كان يعيش في حركة مستمرة بين السجناء ويواسي هذا، ويساعد هذا، ويخفف آلام السجن عن هذا.

وفي يوم عاد إليه سجين كان قد خرج من مدة وعمل خادمًا للملك، وأخبر – عليه السلام – أن الملك قد رأى رؤيا لم يستطع أحد أن يفسرها له، وقص على يوسف تفاصيل الرؤيا؛ وكانت تتلخص في أن الملك رأى في نومه أن سبعًا من البقرات السمينة القوية تتغلب عليها سبع بقرات نحاف ضعاف وتأكلها؛ أي أنه رأى الضعيف يتغلب على القوي ويأكله.

ثم رأى الملك بعد ذلك سبع سنابل قمح خضراء وسبع سنابل أخرى يابسات، وهاتان المجموعتان في مكان واحد تخرجان من مجموعة واحدة، وأخبر نبي الله يوسف خادم الملك أن العالم كله سوف يمر بسبع سنين من القحط والجدب، ولا أمل لكل سكان العالم في النجاة من هذه المجاعة، إلا إذا وضعت مصر خطةً لتخزين القمح وإنقاذ العالم المعمور من الهلاك، ولا تستطيع دولة في العالم أن تقوم بهذا العمل إلا مصر.

ولذلك أراد الله لمليكها أن يرى هذه الرؤيا، ثم شرع يوسف في تفصيل هذه الخطة فقال للخادم: لا بد من العمل، ووصل الليل بالنهار، وأن تعمل الأمة كلها في هذا المشروع الذي يستمر سبع سنين في زراعة القمح وتخزينه، ثم تأتي سبع سنين أخرى عجاف بدون مطر وبدون زراعة ويجوع العالم، ولكنه يجد النجاة في مصر.

ثم يأتي بعد ذلك عام تُقَام فيه الاحتفالات بهذا الفوز من الهلاك، وعاد الخادم إلى الملك وقص عليه ما سمع من يوسف – عليه السلام – وعند ذلك أدرك الملك أن هذه الخطة لا يمكن تنفيذها إلا بقيادته.

وأرسل الملك إلى يوسف لإحضاره من السجن، وعلم يوسف من الرسول أن الملك يعزم تعيينه قائدًا لهذه المهمة الكبيرة؛ فأرسل للملك يطلب منه سؤال النساء عن ما حدث منهن له.

وأقر النسوة ببراءة يوسف من كل سوء، واعترفت زوجة العزيز بذنبها وأنها هي التي طلبت من يوسف– عليه السلام– فعل الفاحشة، وأنه رفض ذلك ولم يستجب لطلبها وكان الإقرار على ملأ من الناس كما طلبه لأنه كان يريد من وراء ذلك نفي التهمة عن نفسه حتى يتفرغ لقيادة الناس لهذه المهمة الكبيرة، لأنه لو قادهم وهم يشكون في سلوكه فإن طاعتهم له لن تكون كاملةً، وما حدث من يوسف عليه السلام يُعْتَبر فنًّا قياديًّا رفيعًا.

وبدأ يوسف– عليه السلام– قيادة الأمة المصرية للخروج من مأزق المجاعة العالمية،

فوضع خطةً شاملةً لهذه العمل، وقسم هذه الخطة إلى عناصر، وبعض الناس يسمع هذه القصة في القرآن الكريم يظن أن الأمر كان سهلًا للغاية، وأنه أمر المصريين بالزراعة فزرعوا، ثم قاموا بتخزين ما زرعوا.

إلا أن الأمر ليس كذلك لأن الزراعة تتطلب شق الترع والمصارف وبناء الجسور، والعمل على تسوية الأرض وإيصال الماء إليها، ولزراعة أكبر مساحة من الأرض، وهذا يتطلب إنشاء جهاز إداري فعال يؤدي عمله بالليل والنهار، ثم تأتي بعد ذلك مشكلة التخزين في السنابل حتى لا يتلف القمح، والتخزين في السنابل يشغل حيزًا كبيرًا في المخازن.

ولذلك لزم عمل أعداد كبيرة من المخازن الضخمة التي تبعد عن الحرارة والرطوبة وهذا لا يأتي إلا في باطن الأرض وداخل الجبال، ومن هنا بدأ يوسف – عليه السلام – في جمع العمال من كل مصر، ولعمل هذه المخازن بعد وضع الأشكال الهندسية والعلمية لها، وتأمين العمال من انهيار الجبال عليهم أثناء الحفر بالليل والنهار وهذا التنظيم الذي وضعه م ينفع مصر والعالم في فترة المجاعة فقط، بل ظلت تنتفع بهذا النظام لآلاف السنين بعد ذلك.

وعن طريق هذا الإنجاز الضخم تم إنقاذ العالم كله من المجاعة، وكان سكان كل منطقة في العالم المعمور يأتون بالأموال اللازمة لشراء القمح من مصر ثم يعودون إلى بلادهم بالقمح وهو الأمل الوحيد في استمرار الحياة، ومن بين الوفود التي جاءت إلى مصر وفد يضم بينه أخوة يوسف – عليه السلام – الذين ألقوه في الجب قبل ذلك وتخلوا عنه بدافع من الغيرة والحقد عليه وعرفهم وطلب منهم إحضار أخيه الشقيق بنيامين في الرحلة التالية وأخذه منهم بحيلة معينة، ولكنه كشف لهم في نهاية الأمر عن نفسه وأحضر أباه وأمه وأهله جميعًا إلى مصر بلد الخير والنماء.

ونجَّى الله تعالى يوسف – عليه السلام – وأخرجه من محنته ببركة العمل الدنيوي العمراني الذي بذله للمصريين ولكل العالم بعد ذلك.

ويبقى على هذه القصة ملاحظات:

الأولى:

إنه أنقذ أهل مصر بعد أن ظلموه، وكان لا يستحقون منه معروفًا ولا خيرًا على الإطلاق، لأن الجميع تآمروا عليه وهو بريء، ولكنه لما علم أن هذا الأمر يتعلق بكل سكان الدنيا في

هذا الوقت، وأن الجوع من الممكن أن يؤدي إلى فناء العالم وضياع مشروع الله تعالى فيه، وضياع خلافة الإنسان لله تعالى في هذا العالم.

فقد خرج من السجن ليعمل مع مساعديه بالليل والنهار بعد أن عينه الملك حاكمًا عامًّا لكل مصر، فيما يشبه الحاكم العسكري الآن، ومساعدة يوسف – عليه السلام – للمصريين في محنتهم تدل على أن أصحاب النفوس الكبيرة لا يقفون عند الأشياء الصغيرة في الحياة، ولكنهم دائمًا ينظرون إلى الأهداف العليا والكبرى للإنسان.

الثانية:

إن يوسف – عليه السلام – بقي في السجن حتى جاءه خادم الملك، وكان يصنف سجينًا حتى ولو كان بريئًا، وقبل السجن كان يعمل خادمًا في بيت العزيز، ولكنه عن طريق العمل الدنيوي في زراعة وتخزين الحبوب أصبح حاكمًا عامًّا، يأمر فيُطَاع، في كل مكان من مصر، واستطاع من موقعه هذا أن يساعد أهله وأن يحضرهم إلى مصر في عزة وكرامة.

الثالثة:

إن يوسف – عليه السلام – حينما عُرِضت عليه المشكلة لم يتركها للظروف أو يسأل الله تعالى حلها من غير عمل من الناس كما يفعل بعض صلاح هذا الزمان، بل جعل حل المشكلة عن طريق الجهد البشري المُحَاط بتوفيق الله سبحانه وتعالى وأمر الناس بحل مشاكلهم بأيديهم وأفهمهم أن الله تعالى لا يساعد الكسالى، ولكنه – سبحانه وتعالى – يساعد العاملين المنتجين.

الرابعة:

إن يوسف – عليه السلام – لم ينس لحظةً واحدةً مهمته الأساسية في الدعوة إلى الله تعالى، بل إنه كان يبذل جهودًا متناهيةً ليؤسس لدعوته ويمكن لها، وهذا أسلوب قوي في الدعوة إلى الله تعالى، لأن الإنسان الذي يعيش على هامش الحياة لا يستطيع أن يقنع الآخرين بدعوته أو احترامه كإنسان، وكم من دعوات باطلة ازدهرت فترةً من الزمن بسبب قوة أصحابها وعملهم الجاد من أجلها.

الموقف السادس: نبي الله تعالى موسى- عليه السلام- والعبد الصالح:

قال الله تعالى في سورة الكهف (٦٠–٨٢): ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ
سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ
أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ
أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ
ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا
عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ
أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ
جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ
وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ
جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ
بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا
فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا
﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ
لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ
فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ
زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ
أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ
أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

جاءت هذه القصة في سورة الكهف وهي قصة رحلة عملية قام بها نبي الله موسى –

عليه السلام – وعبد صالح من عباد الله تعالى أمر الله تعالى موسى – عليه السلام – أن يبحث عنه ويتبعه، وتم إنجاز المهمة التي أرادها الله تعالى، وعاد العبد الصالح إلى الغيب كما جاء منه.

والمفسرون يختلفون كثيرًا حول مضمون هذه القصة، وبعض الناس يزعم – واهمًا – أن الولي أفضل من النبي بدلالة هذه القصة، وهم بذلك يهزلون في موقف لا يقبل الهزل، إلا أن القصة من أولها لآخرها تؤكد معنى خلافة الإنسان لله تعالى في ثلاثة أشياء، وكان من الممكن اليسير أن ينفذها الله تعالى بقوة (كن) التي يطلقها على أي شيء فيكون، ولكنه استخلف فيها الإنسان للقيام بهذا العمل، فالله تعالى يريد ما يلي:

(أ) حماية السفينة من الغصب (السرقة) عن طريق قراصنة البحر، فكلف العبد الصالح بخرقها ليظهر فيها العيب الذي يمنعها من السرقة.

(ب) قتل الغلام حفاظًا على مستقبل أبويه الإيماني، لأن هذا الغلام سوف يجرهما بفسوقه إلى الطغيان والكفر، أو يعذبهما طغيانًا وكفرًا، وكان من اليسير خروج روح هذا الغلام من طريق غير هذا الطريق، ولكن العبد الصالح قام بقتله تنفيذًا لمراد الله – سبحانه وتعالى.

(ج) بناء الجدار للمحافظة على الكنز الموجود تحته، وقد قام بذلك العبد الصالح يعاونه نبي الله موسى – عليه السلام – وتأكد بذلك أن عمارة الأرض وتطورها مهمة إنسانية أساسية، وأن ذلك جزء من عقيدة المسلمين؛ والذين يذهبون في فهم النص القرآني بعيدًا عن هذه الواقعية، إنما يصرفونه عن معناه، ويجتالونه بعيدًا عن هدفه.

الموقف السابع: نبي الله تعالى موسى عليه السلام– في أرض مدين:

يقول الله تعالى في سورة القصص (٢٢–٣٠): ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا

جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾.

خرج نبي الله تعالى موسى– عليه السلام – من مصر خائفًا مهددًا بالقتل بعد أن قتل المصري– بدون قصد– وهو يدفعه بعيدًا عن اليهودي، وظل يسير في برد الليل وحر الشمس.

وصل إلى أرض مدين، ووجد مجموعةً من الرجال يلتفون حول بئر ماء، يسقون منه إبلهم وأغنامهم، ولكنه وجد بعيدًا عن البئر فتاتين تدفعان أغنامهما وإبلهما بعيدًا عن الماء، فتعجب لهذا الأمر، وسألهما عن سر ذلك التصرف العجيب، فقالتا له: إننا نمنع إبلنا وأغنامنا عن الماء حتى ينصرف الرعاة، لأننا لا نقوى على مزاحمة الرجال، وأبونا شيخ كبير وليس لنا عائل غيره.

فقام نبي الله تعالى موسى يدفع الإبل والغنم إلى البئر وسقى لهما، ورد لهما أغنامهما وإبلهما، ثم انصرف بعيدًا عنهما، وعند عودة البنتين إلى أبيهما أخبرتاه بما حدث لهما معه فأرسل له يطلبه ليجزيه على ما قدم لابنتيه من خدمة عظيمة.

ولما جاء موسى إلى هذا العبد الصالح، وأخبره بقصته طمأنه وقال له: لقد نجوت من هؤلاء القوم الظالمين، وأشارت إحدى ابنتيه على أبيها أن يستأجر موسى للقيام بزراعة الأرض ورعي الماشية بدلًا من البنتين.

ولكن الرجل الصالح أدرك أنه لو استأجر موسى– عليه السلام – من غير أن يزوجه إحدى ابنتيه فإنه سيوقعه في حرج، لأنه لن يكون حرًّا في تصرفاته اليومية وهو بين قوم لا

تربطه بهم رابطة، وهنا أخبر العبد الصالح موسى أنه سيزوجه ابنته.

وقال موسى إني لا أملك شيئًا من حطام الدنيا، فأخبره العبد الصالح أن صداق ابنته سوف يكون العمل اليدوي الدنيوي، وأن هذا الصداق يُقَدر بعمل موسى – عليه السلام – للعبد الصالح ثماني سنوات، وإن أتمها عشرًا فهذا يعود إلى اختيار موسى عليه السلام.

وهنا وافق موسى – عليه السلام – على الزواج والعمل مقابل ذلك ثماني سنوات. في هذه القصة دعوة عظيمة للعمل الدنيوي، وأنه عزة وفخار للإنسان الفرد على السواء، فهذا هو نبي الله تعالى موسى – عليه السلام – يعمل أجيرًا ثماني سنوات أو أكثر؛ يزرع الأرض ويرعى الغنم، ولا يرى في ذلك شيئًا يحرج كيانه.

وهذه القصة تثيرفي النفس عدة ملاحظات:

الأولى:

أن نبي الله موسى تم إنقاذه عن طريق العمل الدنيوي والجهد المبذول فيه.

الثانية:

أنه عمل أجيرًا ثماني سنوات وليس يومًا أو يومين، وكان يؤدي عمله بصبر ومهارة عند صهره، وكان من الممكن بعد الزواج أن يهيمن على البيت، وأن يستأجر أحدًا مكانه للعمل، ولكن أنبياء الله تعالى يرون في العمل اليدوي الدنيوي طاعةً لله تعالى وخلافةً له.

ولذلك لم يرد أن نبيًّا ترفع على العمل ورفضه مهما كان نوعه أو الثمرة التي تعود منه، وطالما أنه مرضاة الله سبحانه وتعالى.

الثالثة:

أن كثيرًا من شباب المسلمين يرغبون في الزواج، ولكنهم لا يعملون بجهد لإعداد بيت كريم، وينتظرون – في الغالب – أن تُحَل مشاكلهم بطرق خيالية لا وجود لها إلا في خيالهم الكليل، ومن الممكن أن يكون نبي الله تعالى موسى – عليه السلام – قدوةً لهم في العمل من أجل بناء مستقبلهم، ومستقبل أجيالهم القادمة.

الرابعة:

أن العبد الصالح – صهر موسى عليه السلام – لم يعفه من العمل بحجة أنه رجل صالح، وأنه رجل تقي؛ لأن الصلاح والتقوى لا يعفيان العبد من عمارة وإقامة الخلافة، ولذلك طلب

منه أن يعمل ثماني سنوات في مقابل صداق ابنته، بل طلب منه أن يزيد على هذا الأجل عامين آخرين، فهو هنا لا يعفيه من العمل بل يطلب منه المزيد.

الموقف الثامن: ذو القرنين وبناء السد:

قال الله تعالى في سورة الكهف (٩٣-٩٨): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾.

مكن الله تعالى لعبده ذي القرنين وعلمه كيف يسيطر على الأرض، وأعطاه أسباب ذلك، وطاف ذو القرنين في أرجاء العالم من مشرقه لمغربه حتى وصل بين السدين – مكانًا بعيدًا جدًّا – وجد هناك أناسًا متخلفين، ليس لهم نصيب من الحضارة الإنسانية واستغاث الناس به لإنقاذهم من ظلم يأجوج ومأجوج وفسادهم، وعرضوا عليه مبلغًا من المال يُدْفَع كل عام على أن يقوم ذو القرنين وقواته الضخمة ببناء سد بين هؤلاء القوم وبين يأجوج ومأجوج.

وعد ذو القرنين القوم بأنه سيبذل أقصى جهد في عمل سد يؤمنهم من هجوم يأجوج ومأجوج، ولكنه طلب منهم أن يساعدوه وأن يبذلوا معه أقصى جهد ممكن وقال لهم ساعدوني بقوة، لأن بناء السد الكبير ليس أمرًا سهلًا على الإطلاق، وأنه لن يتم إلا بالجهد والعرق والتضحية بكل غال ونفيس، وهو بهذا يحاول أن يخرجهم من عزلتهم، ويكشف لهم عن القوة الكامنة بداخلهم، وهم لا يشعرون بها، وهي قوة الحركة والعمل المنظم الهادف – قوة الخلافة.

وبعض الباحثين يظنون أن أهم شيء فعله ذو القرنين لهؤلاء الناس أنه بنى لهم سدًّا كبيرًا، إلا أن الباحث المدقق يدرك أن أهم شيء فعله ذو القرنين لهؤلاء الناس أنه دفعهم للعمل في بناء السد، وحرر إرادتهم المكبلة بالذلة والخنوع والخوف من همجية يأجوج ومأجوج، ولعل إيقاظ إرادة هؤلاء الناس ودفعهم للعمل كان أقوى وأكثر خطرًا من بناء السد وتحصينه.

وظل يأجوج ومأجوج عاجزين عن تخطي هذا السد المنيع لسببين:

أحدهما: قوة السد ودقة صنعه.

وثانيهما: أن يأجوج ومأجوج اعتقدوا أن القوم الذين استطاعوا أن يبنوا هذا السد الشامخ بالعمل لن تكون السيطرة عليهم سهلةً كما كانت من قبل، فقد استيقظت فيهم الإرادة وحب العمل، وأي أمة تستيقظ في أبنائها الإرادة وحب العمل لا بد أن تصبح أمةً مهابةً يفكر العدو مرات كثيرة قبل أن يهجم عليها أو يفرض عليها إرادته، ومن الغريب أن الأمة الإسلامية تعيش الآن حالةً تشبه حالة القوم قبل بناء السد، ولكن أين ذو القرنين يوقظها ويدفعها للعمل وتطوير الحياة.

***